كتب بالفرنسية

نحو زوال إسرائيل؟

Vers La Disparition d'Israël?

Ami Bouganem

Paris: Ed. Seuil, 2013. 306 Pages.

ينتمي هذا المؤلف ذو النزعة الفلسفية والأدبية إلى صنف الأدبيات اليهودية التي وضعت مستقبل دولة إسرائيل موضع المراجعة والشك واللايقين، بسبب طابعها العدواني والسياسات الداخلية الفاشلة المعتمدة التي زادت الشرخ بين الفئات والجماعات المكونة للمجتمع الإسرائيلي، والحصيلة أن "الأنباء جيدة من تل أبيب". وقد سبق أن صاغ ناحوم غولدمان، الزعيم الصهيوني، تساؤله في كتاب: "الى أين تمضي إسرائيل؟" متوقعاً لها نهاية مأسوية في حال لم تعترف بالفلسطينيين وبحقهم في دولتهم، وذلك عقب حرب تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣، التي أنهت أسطورة الجيش الذي لا يُقهر.

ويحاول عامي بوغانم، بدوره، أن يشرح المسار الذي يقود دولة إسرائيل إلى الزوال حتماً.

ولهذا الغرض يضعنا الكاتب بداية في صورة طفولته التي قضاها في المغرب تحت رعاية الحاخام "بينشاس" (pinchas) المتدين، الذي ترك هذه الدنيا من غير أثر أدبي أو ذرية، كي يشدد على هويته اليهودية والتزامه. وقد تكون هذه التربية هي التي أثارت في نفسه سؤال "مَن هو اليهودي؟" أو "ماذا يعني أن تكون يهودياً؟" ولا سيما في ظل ما يُسمى "إسرائيل"، هذا الكيان السياسي الهش، بزعمه. وما يلاحظه ويقلقه في آن، بصفته يهودياً، أن إسرائيل تتعرض لعملية نزع الشرعية عنها، ولا يمكن لأحد توقع مآلها. وهذا الأمر مزدوج: خارجي وداخلي.

في الخارج تحالف بين العالمثالثيين والأصوليين الإسلاميين لزعزعة حق الدولة العبرية في الوجود، الأمر الذي يؤجج "معاداة السامية" مجدداً تحت غطاء معاداة الصهيونية. ويرى الكاتب أن العالم تكالب ضد اليهودي الناشز بين "سكان المعمورة"، واليوم ثمة تكالب ضد إسرائيل الناشزة بين الأمم. وإجراءات نزع الشرعية عن إسرائيل تماثل إلى حد ما إجراءات إقصاء اليهودي. ففرادة إسرائيل لم تعد مقبولة في كون يتعولم، مثلما لم يُقبل اليهودي سابقاً في مجتمعات دينية أو ثقافية أو قومية متجانسة، ودائماً وفق الكاتب.

أمّا في الداخل، يقول

بوغانم، فإن نزع الشرعية يعمل من خلف النقد ما بعد الصهيوني للطابع العبري للمؤسسات الدولتية، وتحقير السيادة الوطنية اليهودية من طرف المجموعات الأورثوذكسية المتطرفة وأولئك المتدينين المتحمسين المطالبين بضم الضفة الغربية بسبب ذكرها في نصوص التوراة، من دون الكلام عن الأوساط العربية والدرزية المستاءة من عملية الإدماج في المجتمع المدني الإسرائيلي.

وكي يلطف من وقع نقده، فإن الكاتب يوضح عدم تمنّيه زوال إسرائيل، فضلاً عن عدم انتظاره قيام المدينة السماوية، المنشودة عند الكيبوتسيين وحركة الاستيطان التعاونية "الموشافيم" (Moshavim) التي تعني: التقشف والقناعة، والفضيلة والمدنية، والعدالة والإحسان، والتواضع والحكمة.

ويقول الكاتب إن هذا الوجه من إسرائيل ما زال موجوداً وتجسده بعض الشخصيات، لكنه يتدهور من عام إلى آخر، تحت ضغط الشراسة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والخيلاء وإمكان البيع والشراء لكل شيء والفحش والبلاهة الفكرية والظلامية الدينية.

ويؤكد الكاتب أن الشعب اليهودي سيتخطى مسألة احتمال اختفاء إسرائيل كوحدة جيوبوليتيكة، وسيحافظ على بقائه كوحدة روحية، ولن تكون هذه المرة الأولى ولا الأخيرة التي تتخطى فيها اليهودية كنموذج لاهوتي سياسي ما يُعتبر كارثة قومية. وستتكيف مع هذا الاختفاء (المتوقع) كما حدث في إبان دمار الهيكل الثاني في القدس في سنة ٧٠ ميلادية، عقب القمع القاسي للتمرد ضد الرومان، ثم بعد ٥٠ عاماً، موكب المجازر الذي رافق الحروب الصليبية وطرد اليهود من إسبانيا في سنة ١٤٩٢ والمحرقة (shoa).

إذاً، تحوي اليهودية في نظر بوغانم موارد لاهوتية، وأواليات دفاعية ووسائل هرمنوطيقية (تأويلية) تسمح لها باستيعاب اختفاء إسرائيل في مفارقة لُحمتها الشتاتية والمهدوية (المسيانية).

ولن يكون الزوال كارثة مزعزعة أكثر من دمار الهيكل، ولا أكثر إيلاماً من المحرقة، وإنما سيكون الأمر عبارة عن حدث صادم في التاريخ اليهودي، وسنرى في هذا الدمار الجديد كتاباً إلهياً أو تاريخياً يعزز رأي المتشددين في تحفظهم عن هذه السيادة القومية السياسية، وسيدركون أنه أساساً غير فائق الطبيعة وغير إلهي.

سيقرع اختفاء إسرائيل أجراس الصهيونية السياسية والدينية، لكنه لن يهدم، لا الثقة الدينية للمتشددين الدينيين، ولا الشغف بالموضوعات اليهودية الموجود في صفوف المتعلمين من كل صنف. وسيكون الأمر منعطفاً في التاريخ اليهودي يثير أسئلة جديدة ويزرع بعض الاضطراب، غير أنه لن يحدّ من الإبداعية اليهودية، اللاهوتية والثقافية والحضارية.

ولا يحصر الكاتب اليهودية في مدونة من المعتقدات والممارسات، أو

يجدها متحققة في إسرائيل، فهي في زعمه أوسع من الاختزالات كلها، وهي من الغنى بحيث تفيض عن جميع الخطابات العقلانية والفلسفية والتقويّة.

العسل والملح

تحت عنوان "العسل والملح" يتساءل الكاتب عن سياسة دولة إسرائيل الداخلية والخارجية غير الواضحة لديه، ووفقاً لما يرى فإن تاريخ إسرائيل يمتد عميقاً في الزمن. بيد أن تجاهل هذا الأمر يولّد سلسلة من سوء الفهم التي تدفع إسرائيل إلى التمترس في مواقع لا تعرف كيف تخرج منها. والتفسير الخطأ وتعمية التاريخ هذا يشملان الفاعلين السياسيين والحاخامات، ومخاطرهما أنهما قد يؤديان إلى نزع الشرعية عن إسرائيل.

ولهذا الهدف لا يقترح عامي بوغانم مراجعة تاريخ الدولة، لكن تتبّع التيارات التي تعمل داخلها والتي ستؤدي بها ـ لا محالة ـ إلى الزوال. فعلى الرغم من مرور ٦٥ عاماً على إنشائها، فإن التساؤل بشأن طبيعة هذه الوحدة السياسية ما زال قائماً، لأنها تخرج عن إطار التصنيفات السياسية الكلاسيكية التي تتيح وسم الدول المعاصرة. فمن العسير دوماً التمييز بين المواطنة (الإسرائيلية)، والجنسية (يهودية؛ عبرية)، والشعب (يهودي؛ إسرائيلي)، والثقافة (يهودية؛ عبرية؛ عربية؛ فلسطينية)، والدين (اليهودية؛ الإسلام؛ المسيحية؛ المذهب الدرزي). وما زال توقع انحراف الدولة وتشظي المجتمع موجوداً. ومنذ عقود يجري التشديد على الانقسامات، وإسرائيل بين قلة من الدول، يجري التساؤل دوماً عن حقها في الوجود، وهي حاضرة في قلب النقاش السياسي الدولي، وفي عقدة النزاع اللاهوتي داخل الدين التوحيدي. فالبعض ينتظر الخلاص عبرها، والبعض الآخر يتنبأ بوقوع الكارثة من خلالها.

يحاول الكاتب أن يفسر كره هذا الكيان للبحر وإدارته الظهر له بقوله إن الحضن التاريخي لإسرائيل كان في اليهودية والسامرة، أي في الأراضي الداخلية، في قلب الأراضي الفلسطينية.

ويرى الكاتب أن إسرائيل كانت في البدء حلماً، حيث يتجمع اليهود من جديد في أرض يسيل فيها اللبن والعسل ويعودون إلى القدس، وتحوّل الحلم إلى رؤية سياسية تحت مسمى الصهيونية بقيادة هيرتسل الذي تخيّل مجتمعاً يوتوبياً شعاره العمل. بيد أن النتيجة خالفت التوقعات، فالثروة انحصرت في يد قلة معدودة، وتحصّن الجنرالات في ثكناتهم والحاخامات في معابدهم.

ويركز الكاتب على التجربة الدينية في المعازل (الغيتوات) التي حافظ اليهود خلالها على حريتهم وتقاليدهم المتصلة بالنصوص اللاهوتية من دون التجذر في أرض بعينها.

وطبعاً، يقفز بوغانم عن الحقائق التاريخية الصلبة للاحتلال كي يتحدث عن "عودة" تلتها حركة إعمار هائلة تستلهم عدة نماذج هندسية، وهذا الأمر حتّم هدم مبانٍ تاريخية، ولا سيّما في حيفا، من أجل

إنشاء مساكن للأغنياء.

متجاهلاً الوجود الفلسطيني، يتحدث الكاتب عن غياب "الحضارة المحلية"، لكنه يُقرّ بعدم وجود سمة يهودية للأمكنة في الماضي، وبأن المنطقة كانت مسرحاً لحضارات عدة، رومانية وصليبية. واليوم، تبدو المدن والقرى، في عين الكاتب، متنافرة بحيث نرى أكثر من إسرائيل؛ واحدة فقيرة وأُخرى غنية وما بينهما طبقات وسطى قلقة تعيش هاجس الأمن والابتزاز المصرفي والمالي وغلاء المعيشة وانخفاض القدرة الشرائية.

ويرى الكاتب أن المهاجرين يعيشون في الدولة العبرية كما لو أنهم في "معزل" (غيتو)، ويقول إن استعادة التاريخ تثبت أن فترات السيادة الوطنية اليهودية كانت قصيرة دوماً، ويُخشى أن تكون الحقبة الإسرائيلية كذلك؛ فالشك تسلل إلى الأذهان، ولا شيء يبدد هذا الإحساس بالموقت والهشاشة وعدم الاستقرار، وأسس الدولة تبدو مصادفوية قابلة للطعن، والبناء مُتداع.

وبالتالي، يقول بوغانم، إن إسرائيل لم تتحول إلى وطن (patrie) بالمعنى اللاتيني للكلمة، أقلّه بالنسبة إلى ملايين المهاجرين الذين قدموا لأسباب دينية (المغاربة) أو أمنية (الروس). وإذ تبدو إسرائيل أشبه بـ "دولة ملتقى" (Etat croisé)، فإن الكاتب يضع اللوم على "البلوتوقراطية المركنتيلية" (أي طبقة الأغنياء حيث سلطة المال هي المهيمنة والحاكمة) التي لم تتوان عن نهب الطبقات الوسطى المنهكة، وعلى "الأوليغارشيا الثقافية" (أي القلة المتحكمة ثقافياً) التي تُمارس نهجاً جامعياً انعزالياً فضائحياً غير مسؤول، وعلى أرستقراطيا حقوقية في المحاكم النائمة، أكثر من مسؤولية الطبقة السياسية غير المتماسكة.

وتَعرُض إسرائيل نفسها على أنها بلد الهجرة، وهي لا تملك صبراً على المهاجرين، ربما، في رأيه، لأن المهاجرين يتباغضون، فالسلطات تستقبلهم بخفر، ثم تتركهم لاحقاً لمصيرهم، محاولة إخضاعهم وإدماجهم من دون مراعاة لثقافاتهم وعاداتهم، فينتهي بهم الأمر في مدن الضواحي، إلى الحنين إلى مسقط الرأس المرتبطين به أكثر من الوعد العتيق المنكسر في البلد الجديد خائبين "من دون حليب وعسل".

تجمّع المبعدين

أتى المهاجرون من زوايا الأرض الأربع، من ألمانيا وروسيا وبولونيا وبلغاريا والمغرب، كل مع عاداته وتقاليده وآماله، وعلى الرغم من محاولة الصهر في البوتقة، فإن الانقسام بين شرقيين وغربيين بقي قائماً، وبقي سعيهم لتغيير جلدهم وعقليتهم ولغتهم، إن لم يكن من أجل أطفالهم فأقلّه من أجل أنفسهم. بيد أن ذريتهم ظلت تراوح بين اليأس والأمل، فقد أدرك المهاجرون إمكان العيش أفضل وبكرامة في أمكنة أُخرى ومنها البلد الذي قدموا منه، وحاولوا بالتالي الجمع بين الجنسيتين.

ولأن عملية الصهر عسيرة، يحاول الكاتب

تفسيرها انطلاقاً من "عرب إسرائيل" الذين لم يغادروا أراضيهم، فهم، في نظره، يحملون "ضغينة مكبوتة" بسبب عدم فهمهم أسباب إنشاء دولة اسرائيل ولا كيفيته، ويشعرون بأنهم مُستعمَرين وقلقين، لا يرغبون في أن يكونوا إسرائيليين، ولا يريدون الارتباط بالدولة الفلسطينية كيفما يكن تركيبها. وإذ يصف بوغانم وعيهم بـ "الشقي" فإنه يتهمهم بسوء النية، وهم، عنده، لا يفوتون فرصة للانقضاض على الدولة. ومرتبتهم تأتي بعد الغربيين والشرقيين والمتشددين والعمال المهاجرين الصينيين والتايلنديين والفيليبينيين.

وفي سنة ٢٠١٢ تبدو إسرائيل عبارة عن قطع متناثرة من الجماعات، لا بل يجري الحديث عن قطاعات بعضها مُعاد للدولة ويتمنى زوالها. وحدها الطبقات الوسطى، العلمانية طوعاً، هي التي تساند الدولة ووجودها وتُقر بشرعيتها. فالطبقات الشعبية مُهمشة تماماً ومخدوعة سياسياً ومفلسة اجتماعياً ومُفقّرة ثقافياً، وهم لا يحتفلون بالوطن "المُستعاد"، وخلف حبهم لإسرائيل يتلطى حقد مُعذِّب، بينما تضع البلوتوقراطية المركنتيلة والأوليغارشيا الجامعية قَدماً في الداخل وأُخرى في الخارج، ذلك بأن أغلبية القطاعات لا تُبدي حماسة للوحدة السياسية التي اسمها "إسرائيل"، فالجدال مستمر بشأن رسالتها ونظامها وحدودها وأخلاقياتها المدنية: اليهود ضد العرب، والغربيون ضد الشرقيين، وطبقة اللاهوتيين ضد الديمقراطيين، وما أريد له أن يكون بوتقة تحول إلى قِدْر (وعاء) فاسد من الثقافات والحضارات والأغاني، فالثقافة الإسرائيلية غير موجودة وهي تبحث عن نفسها.

نزع السحر عن إسرائيل

على الرغم من النزعة الحربية المفرطة والعمى السياسي والفقر الاجتماعي، فإن الكاتب يرى أن قيام إسرائيل يمثل أحد الإنجازات السياسية الرئيسية في القرن العشرين، انطلاقاً من إيمانه الديني بتحقق الوعد الإلهي المزعوم، فهي، على الرغم من كل شيء، تؤدي دوراً حاسماً في الحالة اليهودية الجديدة.

ويستعيد بوغانم تفصيلات المشروع الصهيوني الأولي المعبّر عنه في الكيبوتس وما حمله من مفاهيم بشأن العمل وربط اليهود المهاجرين بالأرض، لكن، في ضوء واقع الحال في القرن العشرين، تبدو التجربة فاشلة. فقد جرى اكتشاف فضيلة النقود التي تؤمن المنازل الفخمة والسيارات الفارهة والسهرات، الأمر الذي يستجلب حالة من الفساد ولا سيما لدى فئة العسكر، وهو فساد مؤسساتي طاول الأذهان أيضاً. فالدولة تُدار كأنها "معزل" (Ghetto): الأغنياء في إسرائيل يزدادون غنى، والفقراء يزدادون فقراً، والهوة تزداد بين الجانبين، والانصراف إلى المجالات العلمية والتقنية لا يحقق ربحاً إلاّ لأقلّية، فالرهان هو على التكنولوجيا

المتقدمة والتصفية المنظمة للصناعات الثقيلة. ويخلق حجم الاستثمارات والقروض الخارجية ومنها الأميركية، واليد العاملة الأجنبية، وهماً بازدهار اقتصادي غير حقيقي، لا يقوم إلاّ بتحويل "المزارعين الحقيقيين إلى مُلاك أشجار." وفي جميع الأحوال، فإن قلّة (البنوك؛ الصناعيون؛ مدراء المنشآت العامة؛ الأطباء المختصون؛ العلماء)، تستفيد من أرباح أسطورة يُزعم أنها "المعجزة الإسرائيلية".

يرى الكاتب أن اليهود ترددوا كثيراً قبل الإقامة في فلسطين، لأسباب دينية وسياسية، ومَن كان يأتي فمن أجل أن يموت في القدس، أو الصلاة أمام حائط المبكى، لكن الفترة بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين شهدت قدوماً لليهود المغاربة الذين أنشأوا أحياء خارج المحيط التاريخي ليافا، ثم أقام "أحبّاء صهيون" القادمون من أوروبا الوسطى والشرقية، مناطق زراعية تحركها الأفكار الاشتراكية ـ الشيوعية بقصد بناء أنساق جماعاتية جديدة.

وعلى الرغم من أفواج المهاجرين الوافدين من كافة بقاع الأرض ونظرية البوتقة، فإن الإنقسام الشرقي ـ الغربي طبع بسمته المجتمع الإسرائيلي، ومن آثاره انخفاض الهجرة، لأن يهود الولايات المتحدة لا يحبذون مغادرتها، وكذا الأمر لدى يهود أوروبا، لا بل تزداد الهجرة المعاكسة إلى أماكن أكثر أمناً، وقُدّر عدد المهاجرين من إسرائيل في سنة ٢٠٠٠ بنحو مليون شخص.

اغتراب وتدهور

يشدد الكاتب على نزعة الاغتراب الموجودة بين المواطنين ومؤسسات الدولة، ويظهر ذلك في القطاع العام الذي يصفه بوغانم بـ "اللئيم"، والاستعلاء الظاهر لدى الموظفين الذين يشعرون بأنهم يستحقون الأفضل. وحدِّث ولا حرج عن الخدمات المتدهورة في التعليم والطبابة، حتى إن الدولة، في أحيان كثيرة، "تستقيل" أمام نزاعات الأطراف الدينية والأصولية والعلمانية.

ولا يُشكل هذا الجمع من المهاجرين شعباً واحداً، والدليل على ذلك أن مدينة تل أبيب هي النقيض لمدينة القدس. فحين تحتفل الثانية بأي مناسبة دينية بالبكاء واللطم تكون الأولى ترقص وتشرب، فالاثنتان لا تملكان الإله نفسه ولا الطقس نفسه ولا اللغة عينها.

وفي الأعوام الأخيرة بدأ يظهر أن التعبئة الشعبية العسكرية تتطلب ضريبة اجتماعية باهظة، لأنها توجه أفضل العقول نحو مهنة السلاح، وذلك يتم بإغراءات كثيرة منها التقاعد المبكر وفرص للعمل لاحقاً في القطاع الخاص أو العام.

لقد أصبح الجيش "مموّن" النخب في إسرائيل، ويُذكّر مسار النخبوية العسكرية الذي تشهده الدولة العبرية بالعالم الثالث، بحسب بوغانم. وبعد ٦٥ عاماً من تأسيسه، غزا الجيش جميع القطاعات، حاملاً عقليته إليها من دون أي ثقافة سياسية أو خلفية فكرية.

لقد أضحى البلد، برأي بوغانم، في يد الجيش، وهو يُدار بعقلية "الطغمة"، وهذه

لا تني تتوسع.

ومَن يُراقب الخطب السياسية السائدة يلاحظ تراجع خطاب السلام وزيادة التهديدات الجوفاء التي تختتم بالخيبة والمرارة كما حدث في لبنان في حرب تموز / يوليو ٢٠٠٦. وعلاوة على الجيش، فإن الجامعة تُعدّ أحد إنجازات الدولة وقد كُرِّس لها دور إدامة تقليد دراسة الدين اليهودي وتهيئة الأذهان للشروط الاجتماعية الجديدة، وإعداد الطلاب أيضاً للبحث في المجالات كافة.

واليوم يوجد في إسرائيل من سبع إلى ثماني جامعات (واحدة شبه خاصة)، وعشرات المعاهد العليا، وعدد غير محدد من مؤسسات البحث المموّلة من القطاع الخاص والعام، وهي متقدمة في عدد من المجالات مثل البحوث بشأن الدماغ والزراعة في البيئة الصحراوية والدراسات الكابالية (نسبة إلى الكابالا). أمّا اليوم، فإن نفوذ الأساتذة يتضاءل من عام إلى آخر، ويُلاحظ في داخل الجامعة غياب النقاش بشأن رسالتها، وانصراف الباحثين إلى امتيازاتهم أكثر من التزاماتهم ووظائفهم الأكاديمية، ولا يملك الكاتب إلاّ أن يستنتج "عقم" الجامعة الإسرائيلية في الزمن الراهن.

وما تعانيه الجامعة مرتبط بالتدهور الجاري في مجال التعليم، فكما يوجد مؤسسات متقدمة يوجد مؤسسات متخلفة وظلامية، والقطاع التربوي يُعاني، بصورة عامة، جرّاء التشظي.

ومن المتوقع في سنة ٢٠٢٠، أن يكون ٤٨٪ من الطلاب المؤهلين لدخول المدارس من أوساط المتشددين الدينيين ومن العرب، وهؤلاء متحفظون بل يحملون رؤية نقدية إلى البنى الدولتية للدولة العبرية. ولا سبيل إلى تخفيف الهوة التعليمية بين الغربيين والشرقيين وإخماد العنف في المدرسة، والحدّ من اضطراب الهوية بين المهاجرين الروس والأثيوبيين، بل إن المجتمع يبدو مفعماً بـ "الكره المجاني".

الأخطار على الدولة

يلاحظ الكاتب عودة إلى المصادر اليهودية، تأخذ أكثر من شكل ومظهر، بما في ذلك العلمانيون الذين يبحثون عن الإلهام وعن المعنى، وثمة نزعة إلى إضفاء الصفة "الكابالية" على الأخلاق، الأمر الذي يقود إلى إنشاء تجارة "القداسة" الأكثر رواجاً الآن في إسرائيل والأكثر ربحية.

يعود بوغانم إلى التشديد على النزاع القائم بين المتشددين الدينيين وبين العلمانيين ويحذر من خطرين: الأول، "خطر الفرّيسيين (أي الأورثوذكسية الصهيونية التي نمت في الشتات واعتنقت فكرة السيادة الوطنية)؛ الثاني، الخطر الفلسطيني (أو الفلسطنة) (le danger philistin)، (وهو لا يقصد الشعب الفلسطيني الحالي، بل الشعب القديم شاغل السواحل الذي كان ينازع ساكني الأرض الداخلية، اليهود، الأرض والسماء أيضاً، وهم أصحاب أخلاق بحريّة وأهل خشونة. وفي العصر الحديث أخذ هذا المصطلح لدى بعض الباحثين اليهود معنى جامعي الثروات).

كما يحذّر من تحوّل الدولة الى العيش على الإحسان (Etat-charité)، فهي قامت بفضل سخاء روتشيلد، الثري اليهودي، وتعززت بفضل التعويضات الألمانية. وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي النسبي، فإن الدولة تستمر في البقاء بفعل المساعدات والهبات.

ويعتبر بوغانم تل أبيب عاصمة "الفلسطنة" بالمعنى الذي حدده آنفاً، ويشير إلى تجاهل البعض كونها قد توسعت على حساب أحياء وقرى عربية مدمرة، وإلى أنها ليست إلاّ امتداداً ليافا، على الرغم من المصير الحزين الذي لاقته هذه المدينة العتيقة خلال عقود.

بيد أن الكاتب يشكر الله على أن نزعة "الفلسطنة" هذه ما زالت ممنوعة من دخول معازل المتشددين الدينيين والكيبوتسات التي تُعلّم التواضع والتقشف، وهي بعيدة عن القرى المنصرفة إلى زراعة الأشجار، والتي تعيش حلمها بطول الشجرة التي تزرعها. وما زال في إمكان نموذج الدولة الهيرتسلية (نسبة إلى هيرتسل)، كما قدّمه أن ينقذ دولة إسرائيل من التفتت.

وبعد أن يعرض بوغانم وضع الشتات (الدياسبورا) اليهودي في العالم، والذي فقد صفة الأقلية المضطهدة في ظل الأنظمة الديمقراطية، يرى الخطر في الأعراق الأُخرى عرباً وإحيائيين (الأفارقة والآسيويين)، ويرى في بقاء الشتات مصلحة حيوية لبقاء إسرائيل، ذلك بأنها تحمل رسالة دينية، ومن دونها هي دولة مثل بقية الدول. إسرائيل، وفقاً للكاتب، تريد أن تكون منارة للأمم، وتريد أن تكون أمة في الوقت نفسه، وفي النهاية تجد الإخفاق في الحالتين.

إن وضع الشتات ليس أفضل، ففي الولايات المتحدة الأميركية، على سبيل المثال، لم تعد اليهودية أكثر من دين مغلق في سوق كبيرة للأديان. وما يريده بوغانم لليهودية هو أن تستعيد طموحها الكوني.

الصراع مع إسرائيل، في نظر الكاتب، صراع مع الدين اليهودي، متجاهلاً مشكلة الاحتلال والاستيطان والكولونيالية. والحل عنده في الإعلاء من قيمة وفضيلة التسامح، ورفعها إلى مصافي العالمية، وذلك من خلال قراءة تأويلية للنصوص المقدسة في سياق رؤية متعددة إلى "الله". ويملي عليه هذا البعد الديني أن يتمسك بالقدس وأن يعتبرها "ورشة للألوهية والإنسانية"؛ ورشة سياسية لبناء الوحدة الوطنية، وللحنين وللحرب الثقافية، ولن يعُمّها السلام إلاّ حين تدعو الأديان الثلاثة إلى الإله نفسه.

وحين يبتعد الكاتب عن "النص" المقدس ووعوده، يشير إلى واقع إسرائيل الذي لا يسر، حيث نظام التفرقة العنصرية ضد العرب، وحيث الاستعلاء الذي يمارسه "العبد الواصل إلى السلطة" (كما ترد العبارة في الكتاب المقدس). وهو يجد الدولة التي تأخذ بشكل أكثر معنى "دولة الالتقاء" (أو التجمع)، في وضع حرج بين قمع الانتفاضات الفلسطينية ومطالب المتشددين، وحيث الحرب هي ما يلحم المجتمع الإسرائيلي.

يضع بوغانم انتهاء دولة اسرائيل في خانة الواقع

القائم، ولا يعني ذلك عنده نهاية اليهودية ولا نهاية الشعب اليهودي، وتفكيكها سيتحقق على مدى عقود، وهو بدأ غداة حرب الأيام الستة في سنة ١٩٦٧، أي احتلال الأراضي، ثم الانسحاب وتبعات ذلك عند الفلسطينيين وعند اليهود المتشددين.

الحل عند الكاتب هو أن يفتح الدين اليهودي فصلاً جديداً في قصة لقاء الله والإنسان، وذلك بالخروج من حضن الفرّيسية المتشددة والعقيدة المسيانية (المهدوية)، والإقرار بتعدد الأصوات داخله، ودعم حوار شجاع مع المسيحية والإسلام، الأمر الذي يتطلب في زعمه بعثاً جديداً للصدوقيّة، كحركة تجديد يهودية تنشغل بحفظ دولة إسرائيل من الانحرافات التي تعمّها.

عفيف عثمان
باحث وكاتب لبناني

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

أوراق عائلية

دراسات في التاريخ الاجتماعي المعاصر لفلسطين

(طبعة ثانية منقحة)

تحرير
زكريا محمد وآخرين

مراجعة
صالح عبد الجواد

٢٦٦ صفحة ١٥ دولاراً